



هاشم يحيى الملاح

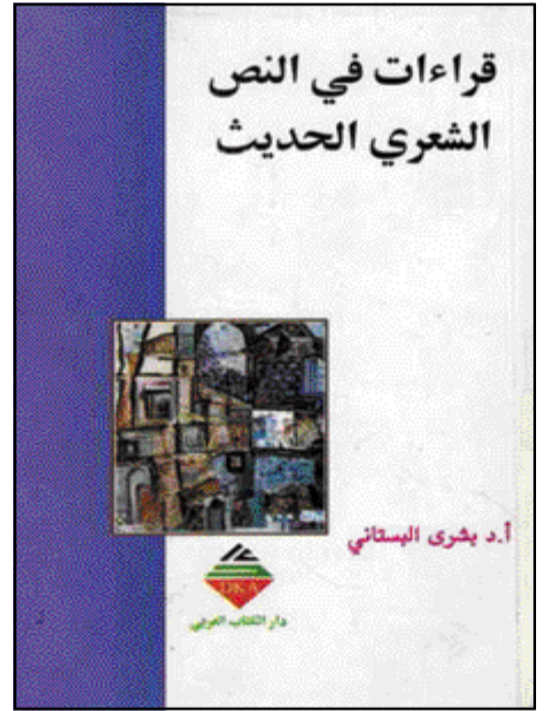
شهادة أدبية حول شاعرة عراقية

دقت الصافرة.. الوقت يقطع أوردتي

قبل أكثر من ثلاثين عاما (سنة 1978)، وبينما كنت ألقى محاضرة حول الهجرة النبوية إلى المدينة المنورة، وقع نظري على فتاتين جالستين بين جمهور واسع، كله من الرجال، فسرتني ذلك منهما وأردت تخفيتهما بطريقة مناسبة وأنا ألقى محاضرتي. فقلت إن حضور هاتين الفتاتين هذه المحاضرة يذكرني بمشاركة امرأتين من الأندلس إلى جانب ثلاثة وسبعين رجلا في مبايعة الرسول (ب) بيعة العقبة الثانية.

وبعد المحاضرة، عرفت أن إحدى هاتين الفتاتين كانت الشاعرة المدعوة بشري البستاني، وقد تونقت معرفتي بها مع مرور الأيام، وبخاصة وأنها كانت مثقفة ملتزمة بالدفاع عن قضايا الوطن والمرأة والسعي لضمان حقوقها ومشاركتها في البناء والتكسر أن الشاعرة بشري البستاني مدعيتي للمشاركة معها في ندوة تلفزيونية بمناسبة اليوم العالمي لحقوق المرأة في حوالي عام 1975، وكان الحديث يدور في هذه الندوة حول مدى ما حققته الإسلام للمرأة العربية من مكتسبات في مجال المساواة وحقوق الإنسان، وأكثر أن الأراء التي قدمت في هذه الندوة قد أزعجت بعض الأوساط المترتبة في المدينة على الرغم من أنها كانت منسجمة مع القيم والمبادئ العليا التي جاء بها الإسلام. إن الالتزام بالحدائق والتجديد المعرفي وما يتبع ذلك من حقول معرفية كان بمثابة حجر الزاوية بالنسبة لتساؤلات الشاعرة المدعوة بشري البستاني في المجالات الثقافية والاجتماعية، وبعد ذلك مفتاحا لدراسة فكرها وتوجهاتها العامة. وقد عبرت شاعرنا عن ذلك في البحث الذي قدمته في الندوة العلمية التي أقامتها كلية العلوم السياسية في جامعة الموصل، في نيسان 2008، عن حقوق المواطنة بعنوان "مواطنة المرأة العربية من الشعاع إلى مستوى القضية"، وكان مما جاء في هذا البحث قولها: "إن إمكانية المرأة لا يمكن أن تتحقق، ولا وتطبيقاتها، ولا دورها في حركات التحرر، إلا من خلال استكمال قضيتين مهمتين فيما يتعلقان بذات المرأة نفسها هما: التعليم بحريتها عقليا وفكريا ونفسيا، والعمل وديورها اقتصاديا من أية توعية، وبدونها كلا ذلك إلى المشاركة بقاء من بناء ذاتها واستمرارها ويعمل على إدماجها في قضايا

الدكتورة بشري البستاني ترى أن الدعوة إلى تحقيق الديمقراطية في الوطن العربي «ستظل حبرا على ورق إذا بقيت بعيدة عن مضمون الديمقراطية الاجتماعية بما يفعل التوازن بين الحقوق والواجبات بين مؤسسات وجمامير المجتمع ككل». وفي ختام دراسة شاعرنا الأستاذة الدكتورة بشري البستاني عن مواطنة المرأة العربية، يبرز الهم الوطني في ظل الظروف الصعبة والقاسية التي أعقبت الاحتفال عام 2003 ليتقدم ما سواه ويستوعبه.



أ.د بشري البستاني

مجتمعتها الكبرى مما يهيئها للمشاركة في صنع القرار. وهنا تؤكد شاعرنا الدكتورة بشري البستاني: "إن تحقق مواطنة المرأة حقوقا وواجبات، وبشكل موازن لن يتم إلا من خلال حركة جدلية تجري ضمن تيارات تحريرية صاعدة من الفرد بتربية سليمة وعادلة تمتد قديم العذل والمعايير، كل العراق، أرضا وإنهارا وفيرة وتاريخا، العراق الموحد من شمالة إلى جنوبه، ومن شرقه إلى غربه، لو لم تكن مواطنة المرأة والرجل كليهما دائما وواعية إلا إذا كانت خالصة لوجه الله والحب وحدهما لتتسحب كل الاعراف والاطراف والأهواء إلى الوراء ويقبى وجه الراقدين متالفاً ينهل شعبي الموحد من نبع المحبة ليدحض كل الممارسات الطائفية والتشردم والتجزئة التي تحاول العودة بالعراق إلى عصور الظلم والتخلف، إن المدارس لدواوين الشاعرة المدعوة بشري البستاني يلحظ بدون عناء انعكاس هذه الأفكار الاجتماعية والوطنية والإنسانية على مضامين القصائد التي حوتها هذه الدواوين، وما عبرت عنه من مشاعر قوية متصاعدة من هموم الذات والهموم العامة المتصلة بالوطن، والمواطن والإنسان وما عناه ويعانته في ظل الحروب والحصار والاحتلال تقول الشاعرة في قصيدة العراق المنشورة في ديوانها (مكابدات الشجر): "العراق الرؤى، والأمان العراق الأماني"

العراق حديقة روجي تضم إليها غيوما، وبرقا وإزمنة من لظى وجداول شهد تشق أكف التراب والعراق عباءة أمي، وثوب العذاري، اللواتي يمتن على السفع من ظما وغتراب وتقول الشاعرة المدعوة في قصيدة "بانظار الكصف وهي تصور معاناة العراقيين الشديدة من قصف مدتهم ويوتهم من قبل طائرات الأعداء: "دقت الصافرة... سناتي الصواريخ منتصف الليل هذا وبيتي كان على وشك النوم الأيسمين غغا، السور كان سيقف على صوتها فر سرب الطيور وسرب الطفولة فرت شوارع أمة وحول.."

العراق حديقة روجي تضم إليها غيوما، وبرقا وإزمنة من لظى وجداول شهد تشق أكف التراب والعراق عباءة أمي، وثوب العذاري، اللواتي يمتن على السفع من ظما وغتراب وتقول الشاعرة المدعوة في قصيدة "بانظار الكصف وهي تصور معاناة العراقيين الشديدة من قصف مدتهم ويوتهم من قبل طائرات الأعداء: "دقت الصافرة... سناتي الصواريخ منتصف الليل هذا وبيتي كان على وشك النوم الأيسمين غغا، السور كان سيقف على صوتها فر سرب الطيور وسرب الطفولة فرت شوارع أمة وحول.."

تداعيات حول قصيدة العراق

عماد الدين خليل



في عام 2002م، قبل عام من واقعة الاحتلال الأمريكي للعراق نشرت الشاعرة الدكتورة (بشري البستاني) ديوانها: (مكابدات الشجر). في الوقت نفسه أنتجت روايتي (السيف والكمة) عن الغزو المغولي لبغداد، بعد سنوات متطاولة من المعاناة التي يعرفها الروائيون جيدا. كل ما قلته في الرواية تحقق بعد واقعة الاحتلال... أصابني الدهشة، صحيح إن الشاعر والروائي (و الرواية هي نقل شعري للعالم كما يؤكد غابرييل ماركيز) بملكان القدرة على التنبؤ بدرجة أو أخرى.. ولكن ليس إلى حد الطباق في النبض والمعطيات.

مكابدات بغداد مع القهر المغولي كانت (السيف والكمة)، ومكابدات العراق قبل الاحتلال الأمريكي كان ديوان (بشري) مكابدات الشجر. منذ الضربات الأولى لأول قصيدة في ديوانها، بل عنوانها: (قصيدة العراق) تتسلم المفتح وتدخل.. ليست الكلمات وحدها، ولا الصور الشعرية وحدها، وإنما الأبحان (النوتات) التي اختارتها الشاعرة من بحور الشعر العربي متواشجة في القصيدة، تتعاون جميعها في صياغة التعبير " القدير على نقل التجربة إلى الطرف الآخر، المتلقي: تلوب الطيور الجبال الجبال وتلف بأغصانها جرح روجي الجبال ضايبا تجر ضفائرنا الطائرات فاجمع عنها شظايا القنابل اسمح وجنتها فقسيل الغيوم على مهلها فوق ورد الصباح... مرة ثانية: الجبال ثوب... العراق العراق العراق و ثلاثة: العراق الرؤى والمدى والأمان العراق الأماني العراق حديقة روجي.. عباءة أمي وثوب العذاري اللواتي يمتن على السفع من ظما وغتراب إذا جاز لنا تنزيل ثنائية (هيفل) في التقابل أو الجدل بين النقيضين، خلقنا أو لتلقينا ما هنا: التثبيت بالاشياء العزيرة، والخوف من تفلقها... فبا شجرا لا يهدان يا شجرا يسفتر الرياح لماذا فتحت النوافذ والشمس داكنة والعيون قميبة...!..

لماذا تروضت بالدم بالأمانيات ودهرك أعجز من بالقل والعون يهدهد صبيانه والرياح تسمرا بما يشتهي القلته أنت علمتني أن موت كما ينبغي والي الحياة إذا انبجحت قنبلة فيصمما بعد... ها هي ذي المفردات الدالة التي انسريت في شرايين القصيدة، تصيح هم العراق القومي في سلبه وإيجابه على السواء: العدو القلته القنبلة ثم التوضؤ بالدم -و من أجل ألا بأسرها المكان.. وهذه ثنائية أخرى.. تفرش الشاعرة رؤيتها (الساويراسية) لكي تضع الوطن العربي كله في مدى النظر.. ليس بالصلاية الجغرافية، ولكن بالمفاتيح التي تومي لا تكتشف.. المغرب العربي.. النيل.. مكة.. رمل الخليل.. جبل الشيخ.. وأبواب حيفا.. ولكنها دائما تعود إلى نقطة الارتكاز التي انطلقت منها.. النعمة التي تشكلت منها سدى القصيدة ولحماتها: العراق، وجبال العراق، وسرمل العراق، وسعف العراق.. والتقت الذين يجدون شفراتهم لأبحه.. وجد القارئ نفسه يسدك بعض المفردات المنسرية في شرايين القصيدة، إنها - ولا ريب - تعد بشيء التوضؤ.. الطريق إلى مكة.. المنارات.. القصب.. الأصنام والألام.. مفردات تومي من بعيد.. ولا تباشر.. فالباشره تغلف الوج، والقصيدة أريد لها، كما في كل قصيدة مبدعة، أن تظل متوجهة.. مفردات تعكس أصالة الشاعرة، ورؤيتها الإيمانية التي لا تدعها تنفصل عن خبرات أمتها.. ولا تغرب.. لتتسلط منها هويتها.. إذا جاز لي أن أدخل على الخصوصيات، رفقا لمبدأ النص المغفل موت صاحبه.. فإن لي أن أقول بان الشاعرة الحاجة بشري - اطال الله في عمرها - ستضي ايدا لتقديم المزيد عبر رؤية إيمانية كونية تنسج على المدى.. تبدأ رحلتها من القرب المنظور ولكنها ما تلت أن تتجاوز باتجاه الفضاء المفتوح.. السماء الكبيرة.. هذا وذاك وليس "إما هذا أو ذاك".. شريطة ألا تكون قفزة غير مبررة من "المحلي إلى العالمي" أو الكوني.

عليا، معشر الأبناء، والشعراء، أن تلقى جميعا " الشفرة " التي كان (روجية غارودي) قد أرسلها يوما في (وعود الإسلام): إن مشكلة العالم المعاصر، كونية، ولابد للجواب إلا أن يكون كونيا، والإسلام هو هذا الجواب... إن مأساة العراق هي مأساة " الخطأ " أو "الخطيئة" التي تمسك برقبة العالم في اللحظات الراهنة، والخطاب الشعري الذي يبحث عن الجرح سيطوي جناحيه بالضرورة على العراق.. والعالم معا.

وقرنا بينيران لي فاحتج عن الليل في القران الكريم... أملا وتفاؤلا كنت أخذ مهلا كل لقاء... كانت تحترم وجهة نظري وإن اختلفت معها وهي البصيرة بالغة والأدب... كنت أكتب وبها مسافات من الحرية منحني إيمانيها ومحاويرتها في قضايا الأدب والشعر، فاذكر أنني زررتها أول مرة حينما كنت طالبا في المرحلة الثانية من قسم اللغة العربية في كلية الآداب. أما طلاب الدراسات العليا فهم يتسعون إليها لتكون مشرفة على بحوثهم، فهم يجدون عندهم العلم والقيم النبيلة العليا.

وكما تلجأ الثوارين الظالمية إلى ساطي السلام ومنايع الزلل ليحيا الطلاب إلى بشري البستاني... ولا يُفحص ذلك على طلبة الدراسات العليا حيث تفرغ للتدريس والإشراف، إذ لا يتفك طلبية الدراسات الأولية من زيارتها ومحاويرتها في قضايا الأدب والشعر، فاذكر أنني زررتها أول مرة حينما كنت طالبا في المرحلة الثانية من قسم اللغة العربية في كلية الآداب.

أنت هناك... وأنا هنا، وبيننا وبينك مساحة خضراء يحتلها الجراد... أرجوك لا تذهبي بهذا الحنان فهو الذي يشدني إلى كل شبر من هذا الوطن... أحبك... فمخَّطُط الزمان البعيد بالجديد... تقرب كفاي من النهر... كلك هي التي أخذتني إلى أرض المطر فلا تذهبي بعيدا، فانا أخاف من صرراء الحياة المغفرة... السواحل... والصيد... واللؤلؤات التي تتلظى من بحث عنها... هذا الزمن يسفل الدمعات من أعيننا دون أن ندري... ياخذ من بين أيدينا الأحبة ويعطينا الدموع... بعد اليوم لن نريد مزيدا من الدموع... وإن نطق قصائد لراءنا أحبنا الراحمين... ليس من عبث أن أقول، إلى أحبي، أيدا... فهي الألائق التي تقف بوجه لافتات النعي الياكبة... حيك هو الذي جعل مني شاعرا يرفق قصائده للنساء والوطن... أيدا لن أستسلم من مغامرة الحب... فمرا فمرا تنهاوي الأعمار عن يميني وعن شمالي... ونجمة نجمة تألف النجوم... الشمس تحملي كثيرا من الشوق والغيب... تغيب فأحزنني يسأ الكون الفسح... في الظلام أمد يدي إليك وأنت هناك... وبيننا وبينك مساحة خضراء يحتلها الجراد... فرح لا تدل من العطاء...



أصوات حاطرة بين المسافات